صفحات فى الادب الالمانى

لسنج LESSING

بقلم الدكتور على مظهر

ولد (جوتهولد إفرايم لسنج) فى الثانى والعشرين من شهر يناير سنة ١٧٢٩ فى (كامنتز) الواقعة فى (الأوبر لافيتز). وكان أبوه فيها رئيس الوعاظ دخل مدرسة الأمراء بـ(ميسن) سنة ١٧٤١، فدرس اللغات القديمة وأظهر ميلا للرياضيات، وكان أحب الكتاب إليه (تيوفراست) و(بلاوتوس) و(تيرنز) الرومانيين، فأخذ فى دراسة ما خلفوه من أثر بعزم وجد، وقال عنه مدير المدرسة: إن الدروس التى يتلقاها زملاؤه أصبحت لا تصلح له، وقال عنه (جوإدالبس): إنه فى كبير حاجة للمهماز ولا حاجة له بالعنان، ولكن يجب أن يقدم له العلف مضاعفاً، ثم ابتدأ الدراسة فى جامعة ليبترج منذ سنة ١٦٤٦ ليدرس اللاهوت فيها، وتحقق بذلك رغبة والديه، ولكنه سرعان ما أبدله بالطب، ولم يقنع بذلك، بل بدأ يدرس اللغات والفلسفة وفنون الشعر، ومال إلى كتاب الماسى على وجه خاص، وكان قد عرف شيئاً منها بمطالعته للأدبين الرومانيين المذكورين سابقاً، وكان يصحب الممثلين بدلا من التردد على العلماء، وكان يقول فى ذلك: إن التردد على دور التمثيل يعلمه مئات من الأشياء الصغيرة الهامة التى يجب على شعراء الماسى معرفتها، ولا يمكن تحصيلها بالاقطاع إلى المحاضرات مطلقاً، وتعرف إلى صديقه (ميلبوس) وائتمنه على سره، وكان يشغل نفسه بالأدب، ولكنه كان ذا روح حائرة: فلما ذهب إلى برلين تبعه فيها، ولبث فيها أربعة شهور ذهب بعدها إلى فيتينبرج فى نوفمبر سنة ١٧٤٨، وما زال من ذلك الحين كثير التنقلة من مكان لآخر، فتردد على برلين ثلاث مرات، وكان يكثر التردد على الفيلسوف اليهودى (موسوس مندلزون)، وعلى الوراق (فريدريش نيكولاى)، وعلى الشاعر (رملر)، وكان يتردد فى تلك الأثناء على (فيتينبرج) إلى أن عين مدرساً للفنون الحرة، ثم عاد إلى ليبترج، وهناك تعرف بكريستيان إيفالد فون كلايست وعقدت بينهما أواصر الصداقة، وأخيراً ذهب إلى (برزلاو) وعين كاتما لأسرار القائد فون توتزين، ولما كان فى برلين سنة ١٧٦٧ دعى إلى هامبورج ليعد المسرح الذى كان هناك ليكون داراً للتمثيل الوطنى، ولكنهم رجعوا عن تنفيذ المشروع، فعين فى سنة ١٧٧٠ أميناً لمكتبة (فولفنبوتل) ولبث فى منصبه هذا حتى آب لربه، وقد رحل إلى إيطاليا فى ركاب أحد الأمراء رحلة طويلة وعاد إلى مقر عمله فينا بأرملة كان يكثر التردد على منزل زوجها الراحل لما كان فى هامبورج، وتم العرس سنة سنة ١٧٧٦، ولكن لم يدم هناء العروسين طويلا، فقد حملت له طفلا مات تالى يوم ولادته،

ثم ماتت أمه بعده ، بعد زواجها بسنتين ، أو أقل قليلا ، فتملكه الحزن والأسى وجد فى عمله جداً متواصلا عله يسلو ولبث كذلك حتى قضى فى الخامس عشر من شهر فبراير سنة ١٧٨١ فى مدينة براونشفايج .

كان لسنج كبير الاطلاع كثير العلم محباً للبحث نهماً لا يشبع ، وكان يجد سروره وسعادته فى العمل للوصول إلى المعرفة أكثر مما يجد هذا السرور فى العلم نفسه ، ولم تمكنه الفرص إلا من الحصول على قليل من علم الجمال واللغة والفلسفة وتاريخ الأدب والآثار واللاهوت وغيرها ، ولبقت مجهوداته فى ذلك غير تامة ؛ ومن ذلك نشأت عدم طمأنينته وعدم كلاله من العمل اللذان لازماه طول حياته ، وترتب على ذلك ابتعاده عن المراجع التى كانت تضيق له السبل فى البحث ، ولكنه كان إذا تحرك للعمل ولبحث موضوع من المواضيع فانه يبذل جهده ويجد فيه جداً خارقاً للعادة ، ويعمل فى حله خاطراً حاداً وروحاً متوقدة .

وكانت له قدرة على النقد لما اتصف به من حسن الفهم ووضاحة العقل ، فكان يقلب بصره الشديد فى كل ما يظهر من منتجات العقول فى الأدب الألمانى ، وبذا حرر أدب لغته مما كان ينتابه أثر إعجاب بما هو أجنبى ، وجاهد لسنج حتى أسقط تلك المثل الفاسدة التى كانت تعلق بها أمته وتتخذها نموذجاً تحكيه وتقلده ، فكان إذا نقد كان نقده تاماً واشتد فيه ، ولم يكن يتهاون فى نقد نفسه وتبين معايبه ، فكان يفعل بنفسه ما يفعله مع الآخرين عند النقد ، وتلحظ قدرته الفائقة فى ذلك فى مايعرف من (كتب الأدب) التى نشرها بالاشتراك مع مندلزون ونيكولاى فى برلين ، بدأ بسنة ١٧٥٩ وفيها ترى نقده لكل ما ظهر من فنون الأدب فى عصره وتراه يصدر حكمه فيها حكماً غير هياب ولا وجل ، ولم يبق على عيب أو هفوة لأحد من أصحابه إلا أعلنه ، فتراه ينقد كلوبشتوك وفيلاند وكلايست وجلايم وغيرهم من أصدقائه ومن لم يكونوا أصدقاء له ، وكان من رأيه واعتقاده أن التمثيل الفرنسى لا يتفق وما للألمان من طرق فى التفكير ، وأن الألمان قادرون على ما هو خير من ذلك الأدب الفرنسى وتلك الرقة وذلك الحنان والحب عند الفرنسيين ، أما الذى يلتئم والطبع الألمانى فهو العظمة والضخامة والجلال كما يرى ذلك فى آثار شكسبير ومؤلفاته .

وترى لسنج ينشر (لوكون) فى سنة ١٧٦٦ ، والذى بعثه على تأليفها هو (فينكلمان) ، وقد بدأ فيه بجماعة (اللوكون) وتكلم على ما خلفه مثالو الأغارقة (إجيزاندر) و (بوليدور) و (أتينودور) من الآثار ، وتراه يضع حداً فاصلا بين التصوير والشعر ، وتراه يرد على براتينجر ومن قبله سيمونيديس جملة قالوها : إن الشعر تصوير متكلم ، وإن التصوير شعر صامت ، وهى جملة دعت الشعراء إلى الوصف وجعلت المصورين يميلون إلى الرموز ، وقال لسنج إن لكل من الشعر والتصوير مجالا خاصاً به مبايناً للمجال الآخر مع ما لهما من الصلة والنسب ، فمجال التصوير المكان ومجال الشعر تعاقب العصور والأزمان ، فترى الأجسام

مثلا بما لها من صفات ظاهرة هي قطع تصلح للتصوير ، وللشعر مجال في أعمالها التي تأتيها ، وأن التصوير يمكنه أن ينقل الأعمال ويقلدها ، ولكنه ينقلها بواسطة الأجسام ، أما الشعر فانه يصف الأجسام ، ولكن عن طريق الأعمال ، وقد راعى هو سير ذلك القانون ، فانه عند ما يجيء ذكر درع أشيل ترى الشاعر يصفه وهو قائم أمام أعيننا ، وقد انتهى الصانع من عمله وشحذه ولم يصفه الشاعر وهو في يد الصانع وهو يسويه درعاً ويصقل أطرافه وأجزاءه ، وإذا ما أراد الشاعر أن يصف لنا أجاممنون في لباسه وزينته ، فانه يرينا الملك ، وقد فرغ من لبسها قطعة قطعة ، وهو يصور لنا طريقة اللبس وكيفية تقلد ذلك الملك قطع أسلحته وما إليها من ملبس ، هذا إذا ما أراد أن يصف لنا الملابس ، وقد راعى جوته وشلر هذه القاعدة نفسها ، وهناك فرق آخر وبون شاسع بين الشعر والتصوير ، فان الشعر لا يقتصر على وصف الجمال كما هو الحال في الفنون الأخرى ، بل ترى الشاعر يصف وينقل لقرائه وسامعيه صوراً ومشاهد في الطبيعة وهي ذات نطاق واسع ودائرة غير محدودة الأطراف ، وترى الشاعر يصف الجمال والطبيعة مثلما يصف الفظاعة والكآبة ، وفي عرف لسنج أن هذا لا يجوز ولا يتأتى في الفنون الأخرى وفي التصوير .

وهذا رأي غريب من لسنج في عرفنا ، فما الذي يمنع المصور والرسام أو المثال من أن يصور منظراً فاجعاً ، أو أن ينقل إلى الرسام رسماً بشعاً يملأ على النفس حواسها ويترك فيها أثراً مثل الذي يترك أثر شعر يصف بشاعة أو فظاعة أو كآبة ، لقد شاهدنا بأعيننا في عديد المتاحف والأبهاء الفنية التي رأيناها حتى الآن ، وهي تحوي آلاف الألوف من القطع الفنية ، ولا نذكر أنها كانت كلها قاصرة على نقل الجمال والطبيعة فحسب ، وقد اعترض اللغوي (كاوتز) من مدينة (هالا) على ماجاء في (لوكون) من آراء وحمل عليها فرد عليه لسنج في خطابات أدب أسماها (كتب ذات مغزى قديم) ، ولكنها كانت ردوداً خشنة جعلت لآراء ذلك الأستاذ السكوت جوابها ، ولم تقتصر هذه الخطابات على أن تكون آية من آيات الجدل ، ولكنها كانت شهادة بسعة اطلاع لسنج وبغزارة علمه وبتمكينه من معرفة الفنون القديمة وقدرته الفائقة على معالجة المواضيع العلمية ، وفي سنة ١٧٥٩ ، نشر لسنج رسالاته على القصص الخرافية ، بين فيها أن لطبيعتها الداخلية علاقة متينة بما فيها من مغزى ، وعاد في سنة ١٧٧١ فنشر (ملاحظاته على تلك المغازي) .

وقد استرعى إصلاح التمثيل الألماني عنايته الكبرى فوجه إليه اهتمامه ، ولما كان عمره ثماني عشرة سنة وهو في ليبترج كتب فكاهات منظومة سار فيها على طريقة جوتشد وهي على خلاف القطع الأخرى التي نظمت في أيام تلك ، فقد كانت تمتاز بخفة وقعها وملاءمة ذلك للطبيعة ، ومن تلك الفكاهات : العالم الصغير ، والعذراء المسنة ، واليهود ، والكنز وغيرها

أخرى،والقطعة الأخيرة لا قيد فيها ، قد نظمها حسب طريقة (بلاوتوس) ،وكان يحذو حذوه حينئذاك ، وكان لسنج بعدها خير قطعه الفكاهية ، ثم إنه أعقب الفكاهات بالمآسي واتبع فى كتابتها طريقة جلرت وكلوبشتوك الحماسية ، نذكر منها فاجعة (مس شاراسامبسون) و (فيلوتوس) وتراه فى فاجعته الأولى ينأى بكليته عن الذوق الفرنسى وعوضاً عن نظمها فى بحور (اسكندرية) صلبة معروفة بصلابتها وشدتها،فانه كتبها نثراً وتخير لها جواً انجليزيا واستعان فى مادتها برواية (كلاريسا) التى كتبها ريتشاردسون الكاتب الانجليزى المعروف وهى ذات موضوع حى أخاذ ، وقد أجاد فيها تصوير الحياة .

أما فى فاجعته الثانية (فيلوتوس) فقد جعلها فى فصل واحد موضوعها سهل ، ولكنها اشتملت على محاورات متينة يشيد فيها لسنج بذكر الوطن وحبه والميل إليه .

وآية لسنج الخالدة رواية تمثيلية فكاهية أسماها (مينافون بارنهلم) أو (حظ الجنود) نشرها سنة ١٧٦٧ ، وإليك ملخصها :

جاء الضابط البروسى (البكباشى فون تلهايم) إلى سكسونيا أثناء حرب السبع سنوات ليجمع إعانات وضرائب حربية من وسط سكسونى معدم ، ولما كانت الظروف لا تسمح بذلك إلا إذا أريد خراب البلد وإهلاك الزرع والنسل ، رأى ذلك الضابط أن يقرضهم تلك الضريبة الحربية من ماله الخاص ، فكان عمله هذا سبباً فى ميل آنسة سكسونية ثرية إليه ، وكانت تدعى (مينافون بارنهلم) فعقد خطبته عليها وفرقت الحرب بينهما وكان قد أصيب فى خلالها الضابط بعدة جروح وعجز عن تحريك الذراع اليمنى ، ولشد ما كان يؤلمه الوداع بعد أن عقد الصلح ، وأشد من هذا ما كان يحوم حوله من الريب والشكوك فى سلوكه إذ أشيع عنه أنه كان يرتشى من السكسونيين،وأقام الضابط فى إحدى فنادق برلين الصغيرة بعد أن كان يعيش معيشة السراة رخي الحال ، واشتد به الفقر والحاجة حتى اضطر أن يرهن آخر ما كان يملك وهو الخاتم الذى تقبله من حبيبته،حدث كل هذا وهي لا تعلم من نبأه شيئاً ، ولما طال على نأيهما الزمن ولم ترد أخباره عزمت على البحث عنه،فسافرت من ضياعها إلى حاضرة بروسيا ومن قبيبل الصدف أقامت فى نفس النزل الذى كان يقيم فيه خطيبها وقد تأكدت من وجوده وتبينت بؤسه وضيقه لما علمت قصة الخاتم المرهون، وقد سرها التقاؤها بخطيبها،وقد عهدت فيه طهارة الأعراق ودماثة الأخلاق،ورغبت أن تكون رفيقه الأمين فى حال بؤسه،إلا أنه كان يربأ بعزته ورجولته أن يلازمها وقد أصبح فقيراً معدماً عاجزاً عن الحركة قد ابتلى فى جسمه وفى شرفه بما تعلم،ولم يرغب أن يجعلها تشاطره سوء طالعه وما قدر له من شقاء،فرأت مينا أن تتغلب على خطيبها الأبى بالحيلة والدهاء ، وقد تم لها ما أرادت ثم قضت المحكمة ببراءة الضابط مما نسب إليه واتهم به ظلما وعدوانا،بل إنه استلم مكتوباً بخط الملك نفسه يرجع كل ما كان لتلهايم من شرف إليه ونشر ذلك بين الناس ليعرفوه ، كما أنه تيسر لوصيفة مينا المسماة بالآنسة (فرانتزسكا)

أن تزف إلى عريف الجند فرنز وقد عدل عن فكرته الخيالية بأن يكون فى ركاب أحد الأمراء فى رحلته إلى بلاد إيران ، وهناك شخصيات أخرى عديدة فى تلك الرواية التمثيلية نضرب عن ذكرها صفحا خشية التطويل الآن ، إلا أننا نرى من واجبنا أن نبين للقارى مقصد الشاعر من كتابة هذه الفكاهة ، وهو أنه رغب فى تلطيف الحقد الذى أوجدته حرب السبع سنوات بين القبائل والمقاطعات الألمانية ، تلك الحرب التى قامت بين سكسونيا وبروسيا ، وكان منها ما يكون إثر كل الحروب بين القبائل والشعوب ، فترى الشاعر يدعو إلى الصلح والوئام بين الأفراد والجماعات ويغرس فى القلوب حب الوطن الألمانى كله ، ولهذا كانت هذه الرواية التمثيلية الأولى من نوعها فى الوطنية التى وضعت للتمثيل على المسرح ، وقد جاء من بعده كثيرون يريدون أن يأتوا بمثلها ، وأن يكتبوا روايات تمثيلية على الجنود وأعمالها .

ولما نجح لسنج فى خطوته الأولى الهامة فى كتابة مأساة وطنية سعى فى إيجاد مسارح وطنية فى جهات متعددة ، ومن الأسف أن مسرح ليبتزج الذى يعقد لسنج عليه الآمال أضحى غير ذى خطر وفقد أهميته التى كانت له على حين سعى الناس إلى إصلاح حال دور التمثيل فى (فين) و (همبورج) ، فلما كانت سنة ١٧٦٧ دعى لسنج ليعضد إنشاء مسرح ألمانى وطنى فى هامبورج على أن يكون شاعر دار التمثيل فرفض هذا المنصب ، فعرض عليه منصب النقاد المسرحى فقبل أن يكونه ، وكانت ثمرة ذلك العهد (١٧٦٧ حتى ١٧٦٩) هو ما يعرفه بتأليف الروايات الشعرية الهامبورجية ونقده أكثر من المئتين وخمسين رواية تمثيلية ثلثاها تقريبا مترجم عن الفرنسية ، وقد مثل ذلك المسرح الوطنى بهامبورج ، إلا أن غاية لسنج من دار التمثيل هناك لم تحقق ولم تصدق آماله فيها التى كان يعلقها على إنشائها وتأسيسها ، فقد كان الممثلون كثيرى الاحساس رقيق الشعور يتأثرون بسرعة كما أن الجمهور لم يكن ليصدر حكما ولا يبدى رأيا ، وكان ختام أمره من ذلك المسرح ونهايته سنة ، إلا أن عمله هناك لم يخل من نتيجة ، بل كان ذا ثمر ، فقد حدث أن عرفت أصول المأساة ووضحت حدودها ، ولم يك قد سعى إلى ذلك من قبل ، وقد بين لسنج بأن تلك المثل الفرنسية التى كانوا يحتذونها من قبل فى ألمانيا مثل كورنى وفولتير وديدروا وغيرهم لا تصلح أن تكون قاعدة للمأساة الألمانية ، بل إنه قال إنها تضاد الطرق الفنية ، وأن الفرنسيين يزعمون بأن تمثيلهم على غرار المآسى القديمة وأنه يتفق وتعاليم ارسطاطاليس وقواعده التى وضعها ، وقال لسنج وهو الوحيد الذى يقول ما ننقله عنه : إن نقاد الفن عند الفرنسيين قد فهموا كتاب الشعر (Poetik) من تأليف أرسطو فهما معكوسا خاطئا ، وقد بين أن كتاب المآسى الفرنسية قد راعوا وحدة العمل فى مؤلفاتهم ، أما وحدتا الزمان والمكان فقد روعيا عند ما كان لا مندوحة من ذلك بأن كانت وحدة العمل توجب ذلك ، وقد أشار فى نقده لميروب من تأليف فولتير إلى

البعد الشاسع بين المأساة الاغريقية وأختها الفرنسية وبعد الأولى عن الثانية بعد السماء عن الأرض ، كما أنه اشتد فى نقد كورنى وسلق الاثنين بألسنة حداد ، وقال يجب على الألمان أن يتخذوا شكسبير قدوة ومثالا يحتذونه إلى جانب شعراء الاغريق .

وفى سنة (١٧٧١ — ١٧٧٢) كتب فاجعة (أميليا جالوتى) وكان قد فكر فى وضعها قبل ذلك بسنين (١٧٥٧) ، والذى حركه لكتابتها ما قرأه فى فاجعة اسبانية اسمها (فرجينيا) من قلم (أوجوستينوده موتيانو) ، إلا أنه ألبسها ثوب الجدة بدافع أنه أخذ مادتها من التاريخ الرومانى ، فجعل ذلك إيطالياً واتخذ مشاهدها من بلاط أمير إيطالى صغير ، وقد أجاد فيها وصف الأشخاص البارزة فيها كل على حدة بكيفية تستدعى الاعجاب .

ولما كان لسنج أميناً لدار كتب فولفنبوتل نشر عدة مقالات فى (التاريخ والأدب من كنوز دار الكتب) ، وقام بينه وبين أحد كبار الوعاظ المسمى جوتزه جدال دينى خاص بالديانة المسيحية واحتدت المناقشات حتى اضطرت حكومة براونشفايج أن تتداخل وأن تحظر على لسنج المضى فيها ، فدعاه ذلك إلى أن ينفث معتقداته الدينية فى مأساة كتبها سنة (١٧٧٨— ١٧٧٩) ودعاها (ناتان العاقل) ، وجعل حوادثها تقع أيام صلاح الدين الأيوبى لما ذهب إلى بيت المقدس ، وصبح الاسلام إلى جانب الديانة النصرانية واليهودية هناك ، ومع أنه اتخذ لحوادثها زمن الحروب الصليبية إلا أن لآرائه فى الانسانية وحرية المعتقدات ما لو أمكن تحقيقه ، لكان خير عصر عرفه البشر .

وسعى لسنج أن يكون قوام ولب ما يكتب صادقا واضحا ، ولقد خدم بذلك اللغة خدمة جليلة فى هذا الصدد ومهد السبيل ، وأوجد نثراً ألمانيا خاليا من شائبة تشوبه ، فترى أسلوبه الكتابى يحوى كل مميزات الأسلوب الفنى ، ولن يصادفك فيه أثناء مطالعته جمجمة وإزباد غير ذى وضوح لا خير فيه ، ولن تجد فيه تلك النمومة ، ولا تلك الثقشقة الفارغة والمبالغة والاغراق ، ولا تلك التعابير المعوجة التى لا تؤدى للغرض بسهولة ، بل كان يتخير لكتابته دائماً أسهل الألفاظ وأكثرها ملاءمة ، كما كان يتخير التعابير المؤدية للمعنى الذى يقصد كبيرة الوقع فى النفوس ، وكان موفقا فى الاتيان بأمثلة وصور وتشابيه صحيحة بينة توضح ما يقول وما تعنى به الخواطر والأفكار .

ومن شابهه روحا عدا موسوس مندلزون الذى سبقت الاشارة إليه المدعو (توماس إبت) المولود سنة ١٧٣٨ فى مدينة أولم ، والمتوفى سنة ١٧٦٦ ، وقد نشر رسالة أسماها (الموت فى سبيل الوطن) ، عبر فيها عما يكنه فؤاده وقلبه من حب لبلاده ، وقد نشر تلك الرسالة سنة ١٧٦١ ، كما أنه نشر أخرى عنوانها الجزاء سنة ١٧٦٣ ، وكان يقصد إلى رفع المستوى الخلقى والعقلى للشعب .

على مظهر